بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِـالله يَـا نَـاظِـراً فِيـهِ ومُنْتَفِـعـاً ● مِنـهُ سَلِ الله تَـوفيقـاً لِجَـامِعِـهِ
وقُـلْ أنـلْهُ إلـهَ العـرشِ مَغْفِـرَةً ● واقبَـلْ دُعَـاه وجَنِّب عن مَـوانِعِـهِ
وخُصَّ نفسَكَ مِن خَيْر دَعَوتَ بِه ● ومَن يَقـومُ بمـا يَكْفي لِطَـابِعِـهِ
والمسلمينَ جَميْعـاً مَـا بَـدَا قَمـرٌ ● أو كَـوكَبٌ مسْتَنِيْـرٌ مِن مَـطَالِعِـهِ

بسم الله الرحمن الرحيم
(وقف لله تعالى)

يوزع مجاناً

موارد الظمآن لدروس الزمان

خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان

تأليف الفقير إلى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان
المدرس في معهد إمام الدعوة بالرياض

الجزء الأول

الطبعة الحادية عشر

١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِـالله يَـا نَـاظِـراً فِيـهِ ومُنْتَفِعـاً ● مِنـهُ سَلِ الله تَـوفيقـاً لِجَـامِعِـهِ
وقُـلْ أنـلْهُ إلـهَ العـرشِ مَغْفِـرَةً ● واقبَـلْ دُعَـاه وجَنِّب عن مَـوانِعِـهِ
وخُصَّ نفسَـكَ مِن خَيْـر دَعَـوتَ بـه ● ومَن يَقُـومُ بمـا يَكْـفي لِـطَـابِعِـهِ
والمسلمينَ جَميْعـاً مَـا بَـدَا قَمَـرٌ ● أو كَـوكَبٌ مسْتَنِيْـرٌ مِن مَـطَالِعِـهِ

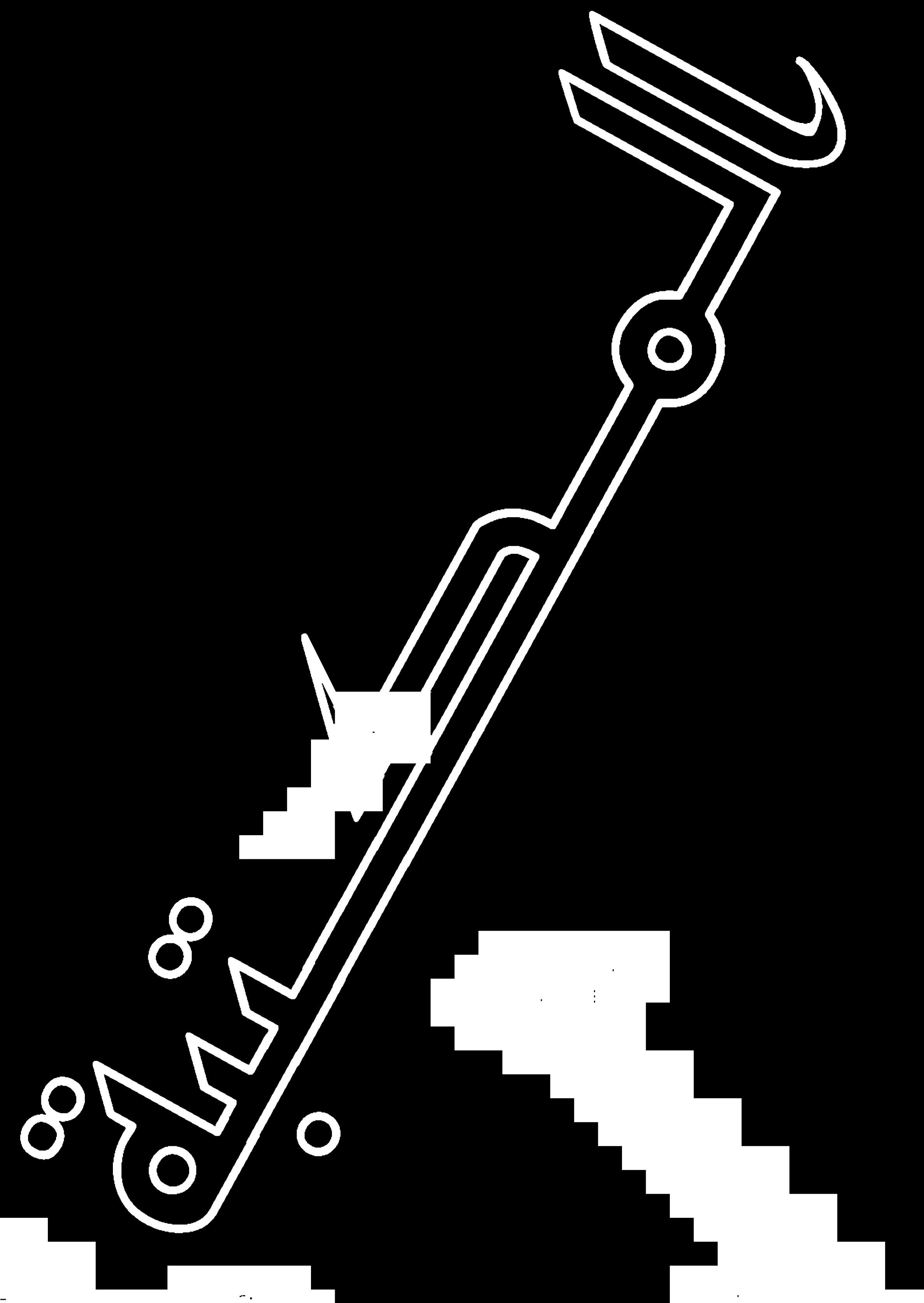

ومَن أرادَ طِبَاعَتِهِ إبْتِغَاءَ وَجْه اللّه تَعالىٰ لا يُرِيْدُ به عرضاً مِن الدنيا ، فقد أُذِنَ لَه في ذلك وَجَزَى اللهُ خيراً مَن طَبَعَهُ وَقْفاً لِلهِ ، أو أعانَ على طبعِهِ ، أو تَسَبَّبَ لِطَبْعِهِ وتوزيعه على إخوانه المسلمين . فقد وَرَدَ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إنَّ اللهَ يُدْخِلُ في السَّهْمِ الوَاحِدِ ثلاثةَ نَفَرٍ الجَنَّة : صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ في صَنْعَتِهِ الخَيْرَ والرَّامِيْ بِهِ ، ومُنْبِلَه » الحديث ، رواه أبو داود .

وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إذَا مَاتَ الإِنسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاَثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوْ له » الحديث رواه مسلم .

وَعَنْ زَيْدْ بن خَالد رَضي اللهُ عَنْهُ أنّ رسُول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ جهَزَ غَازياً في سَبيلِ اللّهِ فَقَدْ غزَا وَمَنْ خَلف غازياً في أهْله بِخَير فَقَدْ غزا » متفق عليه .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

خطبة الكتاب

الحمدُ للهِ الذي تَفَرَّدَ بالجلالِ والعظمةِ والعِزِ والكبرياَء والجَمَالِ وأشكرُهُ شكرَ عَبدٍ مُعْتَرِفٍ بالتقصيرِ عن شكرِ بعض ما أوليهُ مِن الانعامِ والأفضالِ وأشهد أنْ لاَ إلـهَ إلاَ اللّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صلّىٰ اللّه عَليهِ وَسَلَمْ .

وَبَعْدُ فَبِمَا أَنِي رَأَيتُ كِتَابَ المَنَاهِلِ الحسانِ مطلوباً ومرغوباً رأَيتُ أَني أَوّسِعُهُ وَأَزِيْدُ فيهِ زِيادَاتٍ كَثِيْرَةً ما بَيْنَ حِكَمٍ وأَحْكامٍ وَقَوَاعِدَ وَمَوَاعظَ وآدابٍ وأخلاقٍ وقصائِدَ زُهْديات لِيَكُونَ جَامِعَاً نَافِعاً صَالِحاً وَمُنَاسِباً لِرَمَضَانَ وَغَيْرِهِ ولِلْعَالِمِ والمُتَعَلِمِ ولِلأَئمَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَبَذَلْتُ وُسْعِي وَاعْتَنَيْتُ جُهْدِي في تَهْذِيْبِهِ وَتَنْقِيْحِهِ وَتَرْتِيْبِهِ وَقَدْ أكْملتُ تَشْكِيْلَهُ لِيَعْذُبَ لِلسَّامِعِ والقَارِىءِ وَيَسْهُلَ عَلَيهِ .

وأَسْأَلُ اللّهَ الحَيَّ القَيُّومَ العَلِيَّ العَظِيْمَ القَوِيَّ العَزِيْزَ ذَا الجَلالِ والإِكرامِ الوَاحدَ الأحدَ الفردِ الصَمدَ الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفواً أَحَدْ الحَليمَ الكَريمَ القَرِيبَ المُجِيْبَ أَنْ يَجْعَلَ عَملَنَا خَالِصاً لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ مُقَرّباً لَنَا وَلِمَنْ قَرأَهُ وَسَمِعَهُ لَدَيْهِ في جَناتِ النَعِيْمِ وأَنْ يَأْجرَ مَنْ

طَبَعَه وَمَنْ أَعَانَ علىٰ طَبْعِهِ وَمَنْ تَسَبَّبَ لِطَبْعِهِ مَدَىٰ اللَّيَالِي والأَيَّامِ وأَنْ يَغْفِرَ لَنَا وَلَهُ وَلِوَالِدِيْنَا وَوَالِدَيْهِ وَجَمِيْعِ المُسْلِمِينَ الأَحْيَاءِ منهُمْ والمَيتينَ بِرَحْمَتِهِ إِنَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين وصَلّىٰ اللّه على محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِين .

وَسَمَّيْتُ هَذَا الكِتَابَ الجَامِعَ المُسَلِّي لِقَارِئِهِ وَسَامِعِهِ :

(مَوارِدَ الظَّمْآنِ لِدُرُوْسِ الزَّمَان)

حِكَم وأَحْكَام وَقَوَاعِد وَمَوَاعِظ وآداب وأَخْلَاق حِسان .

عبد العزيز المحمد السلمان

المدرس في معهد امام الدعوة

بالرياض

(هَذَا الكِتَاب وقف للّه تَعالىٰ عَلَىٰ طَلبة العلمْ) وَغَيرهمْ مِمَنْ يُريد الانتفَاع به .

بِـالـلهِ يَـا قَـارئـاً كُتْبِيْ وَسَـامِعَـهَـا
أَسْبِـلْ عَليـهَـا رِدَاءَ الحُـكْمِ والـكَـرَمِ
واسْتُـرْ بِلُطْفِـكَ مَـا تَلْقَـاهُ مِن خَـطَاءٍ
أَوْ أَصْـلِحَنْـهُ تُـثَبْ إِنْ كُـنْـتَ ذَا فَـهَمِ
فَـكَـمْ جَـوادٍ كَـبَى والـسَّـبْـقُ عَـادَتُـه
وَكَـمْ حُـسَـامٍ نَـبَـا أَوْ عَـادَ ذُوْ ثُـلَمِ
وَكُـلُّنَـا يَـا أَخِـيْ خَـطَآءٌ ذُوْ زَلَـلٍ
والـعُـذْرُ يَقْـبَلُهُ ذُوْ الـفَضْـلِ والـشِّـيَمِ

وقال آخر :

أَخَـا العِلْمِ لا تَـعْجَـلْ لِـعَيْـبِ مُصَـنِّفٍ
ولـم تَـتَـيَقَّـنْ زَلَّـةً مِـنْـهُ تُـعْـرَفُ
فَـكَمْ أَفْـسَـدَ الـرَّاوِيْ كَـلاَمَـاً بِـنَـقْـلِهِ
وَكَمْ حَـرَّفَ المَنْقُـوْلَ قَـوْمٌ وَصَـحَّفُـوْا
وَكَمْ نَـاسِـخٍ أَضْحَـى لِمَـعْنـىً مُغَـيِّـراً
وَجَـاءَ بِشَـيْءٍ لَـمْ يُـرِدْهُ الـمُـصَـنِّـفُ

الفصل الأول
في التوبة من المعاصي

اعْلَمْ وَفقَنا اللّهُ واياكَ وَجَميعَ المُسلمينَ ، أن الذنوبَ حجابٌ عن اللّهِ ، والانصرافُ عن كِلِ ما يُبْعِدُ عن اللّهِ واجبٌ ، وانما يَتمُ ذلكَ بالعِلم والندمِ والعزمِ ، فانه مَتى لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الذنوبَ أَسْبابُ البُعْدِ عن اللّهِ لَمْ يَنْدَمِ على الذنوبِ ولم يَتَوَجَّعْ بِسَبَبِ سُلُوكِهِ طَرِيْقَ البُعْدِ ، وإِذَا لَمْ يَتَوَجَّعْ لَمْ يَرْجِعْ ، والتَّوْبَةُ : الرجوعُ عَن المَعْصِيَةِ إلى الطاعةِ وهِيَ واجبةٌ مِنْ كلِ ذَنْبٍ ، فان كانتِ المعصيةُ بينَ العبدِ وبينَ ربِهِ تَعالى لا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ آدمِيٍ ، فلها ثَلاَثَةُ شُروطٍ :

الأولُ : الإِقلاعُ عَنْ المَعْصِيةِ التي هُو مُتَلَبِّسٌ بِهَا ، وَعَلاَمَتُهُ مُفَارَقَةُ الذنبِ فَوْراً .

الثاني : النَّدَمُ عَلَىٰ فِعْلِهَا ، وَعَلاَمَتُهُ طُوْلُ الحُزْنِ على مَا فَاتَ وورد عن ابن مسعودِ رضيَ اللّهُ عَنْهُ ، أنّ رَسُولَ اللّهِ صلّى اللّهُ عَليهِ وَسَلَمْ قال : « النَدمُ تَوبةٌ » .

الثالثُ : العَزْمُ أَنْ لا يَعُوْدَ إلى مَعْصِيَةٍ أَبـدًا ، وَعَلاَمَتـهُ التَّدَارُكُ لِمَا فَاتَ وَاصْلاَحُ مَا يَأتِي ، فانْ كَانَ المَاضِيْ تَفْرِيْطاً في عِبادةٍ

قَضَاهَا ، أَوْ مَظْلَمةٍ أدَّاهَا ، أَوْ خَطِيْئَةٍ لا تُوْجِبُ غَرَامَةً حَزِنَ اذْ تَعَاطَاهَا .

فإن فُقِدَ أَحَدُ الشُرُوْطِ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوْبَتُهُ . وانْ كَانَتْ المعصيَةُ تَتَعَلَّقُ بآدمِيٍ ، فَشُرُوْطُها أرْبَعَةٌ ، الثلاثَةُ الشُروطُ المذكورةُ والرابعُ : أن يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِها ، فانْ كَانَتْ مالاً أو نحوَهُ رَدَّهُ إليهِ ، إنْ كانَ مَوْجُوداً أَوْ رَدَّ بدَلَهُ عندَ تَلَفِهِ مِن قِيْمَةٍ أو مِثْلٍ . وانْ كَانَتْ حَدَّ قذفٍ وَنَحْوَه مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ ، وانْ كَانَتْ غِيْبَةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا انْ كَانَ عَاقِلاً حَلِيْماً ، يَغْلِبُ عَلَىٰ الظَنِ أنَّهُ اذا جَاءَهُ أَخُوْهُ المُسْلِمُ نادِماً تائباً عَفَا عَنْهُ وَسَامَحَهُ ، وإلاَّ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَهُ . لِمَا وَرَدَ عَن أنسٍ قَالَ : قَالَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّه عليه وسلم : « إنَّ مِنْ كَفَّارَةِ الغِيْبَةِ أَنْ تَستغفرَ لِمَنِ اغْتَبْتَهُ تَقُولُ : اللهم اغْفِرْ لَنَا وَلَهُ » .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : « مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مظلمةٌ لأَخِيْهِ مِن عِرْضٍ أو مالٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ منهُ اليومَ قَبلَ أنْ لا يكونَ دِرْهَمٌ ولا دينارٌ ، إنْ كانَ له عملٌ صالحٌ أُخِذَ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وانْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِن سَيئآتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَليه » .

وَقَدْ أَمَرَ اللّهُ سُبْحَانَه وَتَعالَىٰ بالتَّوْبَةِ ، وَبَيَّنَ مَا لِلتَّائِبِينَ مِن الكَرَامَةِ والأَجْرِ ، فقال : ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلىٰ اللّه توبةً نصوحاً عَسى رَبُكم أَنْ يُكَفِرَ عَنْكُمْ سَيِئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جناتٍ تجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَار ﴾ .

قال ابنُ القَيِّم رحمهُ اللّه : والنُّصْحُ في التوبةِ يَتَضَمَّنُ ثَلاثَةَ أَشْياء ،

الأولُ : تعْمِيمُ جَمِيْعَ الذُنُوبِ واستغْراقُهَا بها بِحَيْثُ لا تَدَعُ ذَنْباً إلا تَناوَلَتْهُ والثاني : اجماعُ العَزْمِ والصِّدْقِ بِكُلِّيَتِهِ عَلَيْهَا بِحَيْثُ لا يَبْقى تَرَدُّدٌ ولا تَلُوُمٌ ولا انْتِظارٌ بَلْ يُجْمِعُ كلَّ إرادَتِهِ وَعَزِيْمَتِـهِ مُبادِراً بِهَـا .

الثالثُ : تَخْلِيْصُهَا مِن الشَّوائِبِ والعِلَلِ القَادِحَةِ في اخْلاصِهَا وَوُقُوْعِهَا لِمَحْضِ الخَوْفِ مِن خَشْيَةِ اللّهِ ، والرَّغْبَةِ فِيْمَا لَدَيْهِ ، والرَّهْبَةِ مِمَّا عِنْدَهُ ، لا كَمَنْ يَتُوبُ لِحفْظِ جَاهِهِ وحُرْمَتِهِ وَمَنْصِبِهِ ورِيَاسَتِهِ ، أو لِحِفْظِ حَالِهِ أو لِحِفْظِ قُوَّتِهِ وَمَالِهِ أو اسْتِدْعَاءِ حَمْدِ النَاسِ أو لِهَرَبٍ مِن ذَمِّهِمْ أَوْ لِئَلاَ يَتَسَلَّطْ عَلَيْهِ السُفَهَاءُ أو لِقَضَاءِ نَهْمَتِهِ مِن الدنيا أو لإفلاسِهِ وَعَجْزِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِن العِلَلِ الَّتِي تَقْدَحُ في صِحَّتِهَا وَخُلُوصِهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أ هـ .

وأخْبَرَ أَنَّهُ غَفَّارٌ لِذُنُوبِ التَّائِبِيْنَ ، فقال عَزَّ شَأْنُه : ﴿ والذينَ اذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهم ذَكَرُوْا اللّهَ فاستغفروا لِذُنُوبهم وَمَن يَغفرُ الذنوبَ إلَّا اللّهُ ولَمْ يُصِرُوا على ما فَعَلُوا وهُم يَعْلَمُون . أولئكَ جَزاؤهُم مَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهم وجَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنهارُ خالدينَ فِيها وَنِعْمَ أجرُ العامِلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللّهِ جميعاً أَيُها المؤمنـونَ لَعَلَكم تُفْلِحُون ﴾ وأخبرَ سبحانَه أنه يُحِبُّ التوابينَ ، فقال تعالى : ﴿ إنَّ اللّه يُحِبُّ التوابينَ ﴾ .

وقال النَبي صلّى اللّه عليه وسلم : « يا أيُها الناسُ تُوبُوا إلى اللّهِ واستَغْفِرُوْهُ فإِني أَتُوبُ في اليوم مائةَ مَرة » رواه مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « والله إني لاستغفرُ اللّهَ وأَتُوبُ اليه في اليومِ أكثرَ مِنْ سَبْعِيْنَ مَرَّة » رواه البخاري .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِيْنَ يَتُوبُ إليهِ مِنْ أَحدِكُم كانَ على رَاحِلتِه بأرضٍ فلاةٍ فانفَلتَتْ منه وَعَليهَا طَعامُه وَشَرَابُه فأَيِسَ منها ، فأتى شَجرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا وَقدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَما هُو كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قائِمةً عندَهُ فأَخَذَ بِخِطامِهَا ، ثُمَّ قَال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ : اللهم أنْتَ عَبْدِي وأنا رَبُّكَ ، أَخْطأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ » الحديث رواه مسلم .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللّهَ تَعَالى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيلِ لِيَتُوْبَ مُسيءُ النهارِ ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ الليلِ حتَّى تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغْرِبِهَا » رواه مُسلم .

والأَحاديثُ في هذا كَثِيْرةٌ ، والاجماعُ مُنْعَقِدٌ عَلى وُجُوْبِ التَّوبَةِ لأَمْرِ اللّهِ ورسولِهِ بها ، ولِأن الذنوبَ مُهْلِكاتٌ مُبْعداتٌ عن اللّهِ فَيَجِبُ الهَرَبُ مِنْها على الفَورِ ، ولْيَحْذَرْ الإنسانُ كُلَّ الحذرِ مِن الذنوبِ الكَبَائِرِ والصَّغائِرِ . وُوُجُوبُ التوبةِ مِن الكبائرِ أَهَمُّ وآكدُ ، والاصْرارُ على الصغيرةِ أيضاً كبيرةٌ ، فلا صَغِيرةَ مع الإِصْرارِ ولا كَبيرةَ مَعَ التوبةِ والْاسْتِغْفارِ . وَتَواتُرُ الصَّغائِرِ عظيمُ التأْثيرِ في تَسْوِيدِ القلبِ وهوَ كَتَواتُرِ قَطَراتِ الماءِ على الحَجَرِ ، فإنهُ يُحْدِثُ فيهِ حُفْرَةً لا مَحَالةَ مَعَ لِيْنِ الماءِ وَصَلابَةِ الحجرِ . فَعَلَى العاقِلِ أن يَسْتَرْصِدَ قَلْبَهُ باسْتِمْرَارٍ ويُراقِبَ حركاتِهِ وَيُسجّلَ تصَرُّفَاتِهِ ولا يَتَساهلَ ولا يقولَ إنها مِن التوافِهِ الصِغارِ وَصَدَقَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّم حيثُ يقولُ : « إياكُمْ وَمُحقّراتِ الذنوبِ

فإنهنَّ يجْتمعْنَ على الرجل يُهْلِكنَه .

وَإلى هذا المَعْنَى أشَارَ الشاعِرُ :

ولا تَحْتَقِرْ كَيْدَ الضَّعِيْفِ فَرُبَّما
تَمُوْتُ الأَفَاعِيْ مِن سُمُومِ العَقَارِبِ
وَقَدْ هَدَّ قِدْمَاً عَرْشَ بَلْقِيْسَ هُدْهُدُ
وَخرَّبَ حَفْرُ الفَارِ سَدَّ مَآرِبِ

وقال الآخر :

لا تَحْقِرَنَّ صَغيرَاً في مُخَاصَمَةٍ
إنّ البَعُوضَةَ تُدْمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ

وكما أنَّ خيرَ الأعْمالِ الصالحةِ أدْوَمُها وإنْ قَلَّ ، وأيضاً الكبائِرُ قَلَّما تَقَعُ مِن غَيرِ سَوابِقَ وَمُقَدِّماتٍ مِن الصَغَائِرِ ، فَمَثَلاً الزنا ـ والعِيَاذُ باللّهِ ـ قَلّمَا يَقَعُ فَجْأَةً بل تَتَقدَّمُ عليهِ مُرَاوَدَةٌ أو قُبْلَةٌ أو لَمْسٍ .

اللهم أرزِقْنَا العَافِيَةَ في أبْدانِنَا والعِصْمَةَ في دِيْنِنَا وأَحْسِنْ مُنْقَلَبنَا وَوَفِّقْنَا لِلْعَمَلِ بطاعَتِك أبَدَاً ما أبْقَيْتَنَا واجْمَعْ لَنَا بَينَ خَيْرَيَ الدنيا والآخِرةِ واغْفِرْ لنا وَلِوالِدِيْنا وَلِجَميعِ المسلمين الأحياءِ منهُمْ والميّتِين برحْمتِكَ يا أرحَمَ الراحمين وصلّى اللّهُ على محمدٍ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجمعين .

الفصل الثاني

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللّهُ : وللمَعَاصِي من الآثارِ المُضِرَّةِ بالقلبِ والبَدَنِ في الدنيا والآخرةِ ما لا يَعْلمُهُ إلا اللّه ، فمنها أنها مَدَدٌ مِنَ الإنسانِ يَمُدُّ بِهِ عَدُوَّهُ عليهِ وَجَيْشٌ يُقَوِّيهِ بهِ على حَرْبِهِ ومِن عُقُوباتِها أَنَّهَا تَخُونُ العَبْدَ أَحْوَجَ ما يكون إلى نفْسِهِ . ومنها أنها تُجَرِّىءُ العبدَ على مَنْ لم يكُنْ يَجْتَرِىءُ عَليهِ . وَمنها الطَبْعُ على القلب إذا تكاثَرَتْ حتى يَصيرَ صَاحبُ الذَنْبِ منَ الغافِلين ، كما قال بعضُ السَلَفِ في قوله تَعَالى : « كلا بَلْ رانَ على قلوبهِمْ ما كانوا يَكْسِبُون » هو الذَنْبُ بعدَ الذنْبِ وقال : هو الذَنْبُ على الذنْبِ حتى يَعْمَى القلبُ . وأَصْلُ هذا أَنَّ القَلْبَ يَصْدأُ مِنَ المعصيةِ فإذا زادَتْ غَلَبَ الصدأُ حتى يَصيرَ رَاناً ثم يغلبُ حتى يَصِيرَ طَبْعاً وَقفْلاً وَخَتْماً فَيصِيرَ القلبُ في غِشَاوةٍ وَغِلافٍ .

ومنها إفْسادُ العقلِ فإنَّ العقلَ نُورٌ والمعصيةُ تُطْفىءُ نُورَ العقلِ .

ومنها أن العبدَ لا يَزالُ يَرْتَكِبُ الذُنوبَ حتى تَهونَ عليهِ وَتَصْغُرَ في قلبِهِ .

ومنها أنْ يَنْسَلِخَ مِنَ القلبِ آسْتِقْباحُها فتصيرَ لهُ عادةً .

ومنها أنَّ المعاصِيَ تزْرَعُ أمثالَها وَيُوَلِّدُ بعضُها بَعضاً .

ومنها ظُلْمَةٌ يَجِدُها في قلبِهِ يُحِسُّ بِها كما يُحِسُّ بِظُلْمَةِ الليلِ .

ومنها أنَّ المعاصِيَ تُوهِنُ القلبَ والبَدَنَ أمّا وَهَنُها لِلْقَلبِ فَأمْرٌ ظاهِرٌ بل لا تزالُ تُوهِنُهُ حتى تُزِيلَ حياتَهُ بالكُلِيّةِ وأمَّا وَهَنُها للبَدَنِ فانّ المؤمنَ قُوتُهُ في قلبِهِ وكُلّما قَوِيَ قلبُهُ قَوِيَ بَدَنُه .

وَمِنْها أنّ المعاصِيَ تَمْحَقُ العُمْرَ إذْ أنَّ المَعاصِيَ كُلَّها شُرُورٌ .

وَمِنْهَا شَمَاتَةُ الأَعْداءِ فَإِنّ المَعَاصِيَ كُلَّها أَضْرارٌ في الدِّينِ والدُّنْيا وَهَذَا مَا يُفَرِّحُ العَدُوَّ وَيُسِيءُ الصَّدِيقَ .

وَمِنْهَا تَعْسِيرُ أُمُورِهِ فَلاَ يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إلاَّ يَجِدُهُ مُغْلَقاً دُوْنَه أَوْ مُتَعَسِّراً عَلَيْه .

وَمِنْهَا الْوَحْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَلاَ سِيَّمَا أَهلُ الخَيْرِ . وَمِنْهَا حِرْمَانُ دَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلّىٰ اللّهُ عَليْهِ وَسَلَّمَ وَدَعْوةِ الملائِكَةِ لِلَّذِيْنَ تابُوا وَمِنْهَا أنَّ الذُنُوبَ تَدْخُلُ العَبْدَ تَحْتَ لَعْنَةِ رَسُولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ .

وَمِنْهَا أَنَّها تُحْدِثُ في الأَرْضِ أَنواعَاً مِنَ الفَسَادِ في المِيَاهِ وَالْهَوَاءِ والزَّرْعِ وَالثِّمارِ والمَسَاكِنِ .

وَمِنْهَا أَنَّها تُطْفِيءُ مِنَ الْقَلْبِ نارَ الغَيْرَةِ .

وَمِنْهَا ذَهَابُ الحياءِ الذِي هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ القلبِ .

وَمِنْهَا أنَّها تُضْعِفُ في القلبِ تَعْظِيمَ الرَّبِّ وَتُضْعِفُ وَقَارَهُ في قَلْبِ العَبْدِ .

وَمِنْهَا أنّهَا تَسْتَدْعِي نِسْيَانَ اللّهِ لِعَبْدِهِ وَتَرْكِهِ . وَمِنْهَا أنَّهَا تُخْرِجُ العَبْدَ مِنْ دائِرةِ الإِحْسَانِ وَتَمْنَعُهُ ثَوابَ المُحْسِنِين . ومِنْهَا أنّها تُضْعِفُ سَيْرَ القَلبِ إلى اللّهِ والدَّارِ الآخِرَةِ . ومنها أنّها تَصْرِفُ القلبَ عنْ صِحَّتِهِ واسْتِقَامَتِهِ .

وَمِنْهَا أَنَّها تُعْمِي بَصِيرَةَ القلبِ وَتَطْمِسُ نُورَهُ وَتَسُدُّ طُرُقَ العِلْمِ . وَمِنْهَا أَنَّها تُصَغِّرُ النَّفْسَ وَتَحْقِرُهَا وَتَقْمَعُهَا .

وَمِنْهَا أنَّ العَاصِيَ في أَسْرِ شَيْطَانِهِ وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ .

وَمِنْهَا سُقُوطُ الجَاهِ والمَنْزِلَةِ والكَرَامَةِ عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ . وَمِنْهَا أَنَّها تُوجِبُ القَطِيعَةَ بينَ العبْدِ وَبينَ رَبِّهِ . وَمِنْهَا أَنَّهَا تَسْلُبُ صَاحِبَها أَسْماءَ المَدْحِ والشَرَفِ . وَمِنْهَا أَنَّها تَجْعَلُ صَاحِبَها من السَفَلَةِ انتهى .

شعراً :

أَلاَ أَيُّهـا المُسْتَطرِفُ الـذَّنْبَ جَـاهِـداً
هُـوَ اللّهُ لا تَخْفَى عليـه السَّـرَائِـرُ
فـإنْ كُنْتَ لم تَعْـرِفْـهُ حِيْنَ عَصَيْتَـهُ
فـانَّ الـذي لا يَـعْـرِفُ اللّهَ كَـافِـرُ
وإِنْ كُـنْـتَ عـن عِلْمٍ وَمَـعْـرِفَـةٍ بِـهِ
عَصَيْتَ فـأَنْتَ الـمُسْتَهِـيْنُ الـمُجَاهِـرُ

فَــأَيَّــةَ حَــالَــيْــكَ اعْــتَــقَــدْتَ فــإِنَّــهُ
علـيمٌ بــمــا تُــطْوَى عليــه الـضَـمَـائِـرُ

اللهم اهْدِنا لِصَالِح الأعمالِ والأخلاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ واصْرِفْ عَنَّا سَيِّءَ الأَعْمَالِ والأخلاقِ لا يَصْرِفُ عَنَّا سَيِّئهَا إلا أنْتَ واغفِر لنا وَلِوَالدينا ولِجَميع الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتك يا أَرْحَمَ الراحمين وصلّى اللّه على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفصل الثالث

قالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَه اللّهُ تعالى : ممَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الذنوبَ والمَعَاصيَ تَضُرُّ ولا بُدَّ ، أنَّ ضَرَرَهَا في القَلْبِ كَضَرِرِ السُّمُومِ في الأبدانِ على إختلافِ دَرَجَاتِها في الضَرَرِ . وهَلْ في الدُنيا والآخِرَةِ شَرٌّ وداءٌ ، إلَّا بِسَبَبِ الذُنوبِ والمعاصِي ؟

الى أن قالَ رحِمَهُ اللهُ : فما الذي أخْرجَ الأبَوَيْنِ مِنَ الجنةِ والنَعيمِ واللَّذةِ والبَهْجَةِ والسُرور إلى دارِ الآلامِ والأحْزانِ والمصائِبِ وما الذي أخْرجَ إبْليسَ مِنْ مَلَكُوتِ السَماءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظاهِرَهُ وباطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ أقْبَحَ صُوْرَةٍ وأشْنَعَهَا وباطِنَهُ أقْبَحَ مِنْ صُورَتِهِ وَأشْنَعَ وَبُدِّلَ بالقُرْبِ بُعْداً وبالرَّحْمَةِ لَعْنَةً وبالجَمَالِ قُبْحاً وبالجنةِ ناراً تلظَّى وبالأيْمَانِ كُفْراً ، وَبِمُوَالاةِ الوَليِّ الحميدِ عَداوَةً وَمُشَاقَّةً وبِزَجَلِ التَّسْبيحِ والتَّقْدِيْسِ والتَّهْليلِ زَجَلَ الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصْيَانِ ، فَهانَ على اللّهِ تعالى غَايَةَ الهَوَانِ وسَقطَ مِنْ عَيْنِهِ غايَةَ السُقوط وحَلَّ عليْهِ غَضَبُ الربِّ تعالى فأهْوَاهُ ، وَمقَتَهُ أكْبَرَ المَقْتِ فأرْدَاهُ ، فَصارَ قَوَّاداً لِكُلِّ فاسِقٍ ومُجْرِمٍ رَضِيَ لِنَفْسِهِ بالقِيادةِ بَعْدَ تِلْكَ العِبادَةِ والسِّيادَةِ .

فَعِياذاً بِكَ اللهُمَّ مِنْ مُخالفَةِ أَمْرِكَ وَآرْتِكابِ نَهْيِك .

وَمَا الذِي أغْرَقَ أَهْلَ الأَرْضِ كُلَّهمْ حَتَّى عَلاَ الْمَاءُ فَوقَ رُؤُوْسِ الجِبَالِ . وَمَا الذي سَلّطَ الريحَ على قومِ عادٍ حتى أَلْقَتْهم مَوْتى على وَجْهِ الأرضِ كأنَّهم أعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ودمَّرتْ ما مَرّتْ عليه مِنْ دِيارِهِمْ وحُرُوْثِهِمْ وزُرُوْعِهِمْ وَدوابِّهِمْ حتى صارُوا عِبْرةً للأُمَمِ إلى يومِ القِيامَةِ .

وَمَا الذي أُرْسل على قومِ ثَمُودَ الصَّيْحَةَ حتى قَطَعَتْ قُلوبَهم في أَجْوَافِهِمْ وماتُوا عن آخِرِهم ، وما الذي رَفَعَ قُرى اللُوطيّةِ حتى سَمِعَتْ الملائكةُ نُباحَ كِلابِهِم ثم قَلَبَها عليهم فَجَعَلَ عالِيَها سافِلَها فأهلكهم جميعا ثم أَتْبَعَهم حجارةً مِنْ السماءِ أُمرَها عليهم فجمع عليهم مِنْ العُقوبَةِ ما لَمْ يَجْمعْه على أُمَّةٍ غيرِهِم ، ولإخوانِهِم أمثالُها قال تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظالِمينَ ببعيد ﴾ .

وَمَا الذي أرسل عَلى قَومِ شُعَيْبٍ سَحابَ العذابِ كالظُّلَلِ فَلَمَّا صَارَ فوقَ رؤ وسِهِمْ أَمْطَرَ عليهم ناراً تلظّى . وَمَا الذي أغْرَقَ فرعونَ وقومَهُ في البحر ثم نُقِلَتْ أَرْوَاحُهُم إلى جَهَنَّمَ ، فالأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ والأَرواحُ لِلْحَرَقِ ، وَمَا الذي خَسَفَ بقَارُوْنَ وَدَارِهِ ومالِهِ وأَهْلِهِ ، وَمَا الذي أهلَكَ القُرُوْنَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ بأنواعِ العُقوباتِ ودَمَّرها تدميراً ، وَمَا الذي أهلكَ قومَ صاحِبِ يَس بالصيحةِ حتى خَمَدُوا عنْ آخِرِهم .

وَمَا الذي بعثَ على بني إسْرائيلَ قوماً أُولى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وقَتلوا الرجالَ وسَبَوُا الذُرّيةَ والنسَاءَ ، وأحْرقوا الديارَ ونَهَبُوا الأموالَ ، ثم بَعَثَهُم عليهم مَرَّةً ثانِيَةً فأَهْلَكُوا ما قَدِرُوا عليه وتَبَّروا ما عَلَوْا تتْبيرا ، وَمَا الذي سَلَّط عليهم أنواعَ العُقوباتِ مَرَّةً بالقتل والسَّبى وخَراب البلادِ ومَرَّةً بِجَوْرِ الملوكِ ومَرَّةً بمَسْخِهِمْ قِرَدَةً وخنازيرَ وآخِرُ ذلك أقسم

الربُّ تبارك وتعالى لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يومِ القيامةِ مَنْ يَسُؤْمُهُمْ سُوءَ العذابِ .

شعراً :

دَعُــونِـيْ على نَـفْـسِـي أَنُــوحُ وأنْــدُبُ
بِــدَمْــعٍ غَــزِيْــرٍ واكِــفٍ يَـتَــصَـبَّــبُ
دعُــونِـيْ على نَفْسِـي أنــوحُ فــانَـنـي
أخَــافُ على نَفْسِي الضَّعِـيْفَـةِ تَـعْـطَبُ
وَإِنِّـيْ حَـقـيـقٌ بــالـتَـضَـرُّعِ والــبُـكَــا
إذا مــا هَــدَا الـنُّــوامُ والليــلُ غَـيْهَـبُ
وَجَـالَتْ دَوَاعي الحُـزنِ مِنْ كُـلِّ جانبٍ
وغــارَتْ نُجُـومُ الليــلِ وانْقضَّ كَـوْكبُ
كَـفَى أَنَّ عَـيْـنِـي بــالـدُمُــوعِ بَـخِـيْـلَةٌ
وأَنِّــيْ بــآفــاتِ الـذُنــوبِ مُـعَـذَّبُ
فَمَنْ لي إذا نـادَى المُنادِي بِمَنْ عَصَى
إلـى أيـنَ إلْـجَـائِـي إلـى أَيْـنَ أهْــرُبُ
وقــدْ ظَهَـرتْ تِلكَ الفضــائـحُ كُلُّهــا
وَقَــدْ قُــرِّبَ الـمـيـزانُ والـنــارُ تَـلْـهَبُ
فَيَـا طُولَ حُزْنِي ثم يـا طُـولَ حَسْـرَتي
لئنْ كُنتُ في قَـعْــرِ الجحيـمِ أُعَــذَّبُ
فقــدّ فـازَ بــالمُلْكِ العَظيمِ عِصَــابةٌ
تَبِيتُ قيـامــاً في دُجَى الليــلِ تَـرْهَبُ

إذا أشْـرَفَ الْجَبَّـارُ مِنْ فَـوْقِ عَـرْشِـهِ
وقَـد زُيِّنَتْ حـورُ الـجِنـانِ الـكَـواعِبُ
فَـنَـادَاهُـمْ أَهـلاً وسـهـلاً ومَـرْحَبـاً
أَبحْتُ لَكُمْ دارِي ومـا شِئْـتُمْ اطْـلُبُـوا

قال العلمآءُ وتعظُمُ الصغيرةُ بأسبابٍ منها : أنْ يَسْتَصْغِرَها الانسانُ ويَسْتَهينَ بها فلا يَغْتمَّ بسببِها ولا يُبَالي ، ولكنَّ المؤمنَ المُجلَّ للّهِ المُعَظمَ له هو المستعظمُ لذَنْبِهِ وإنْ صَغُر فإنَّ الذنبَ كلَما آستعظَمَهُ العَبْدُ صَغُرَ عِنْدَ اللّهِ تعالى وكُلَما استصغرَهُ كَبُرَ عِنْدَ اللّهِ تعالى فإنَّ استعظامَهُ يَكونُ عَنْ نُفورِ القلبِ مِنْهُ وكَراهيَتِهِ لَهُ .

قال ابنُ مسعودٍ : إنّ المؤمنَ يَرَى ذَنْبَهُ كأَنَّهُ في أَصْلِ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليهِ وإنّ الفاجِرَ يَرَى ذَنْبَهُ كذُبابٍ وقَعَ على أنفِهِ فقال بِهِ هَكَذَا ، أخْرَجاه في الصحيحين . وفي البُخاري مِنْ حَديثِ أنَسٍ رضِيَ اللّهُ عنْهُ : إنكُمْ لَتَعْمَلون أعْمَالاً هِيَ أدَقُّ في أعْيِنِكُم مِنْ الشَعْرِ كُنّا لَنعُدُّها على عَهدِ رسولِ اللّهِ صلى اللّهُ عليهِ وسلمَ مِنْ المُوبِقَاتِ .

وقَالَ بِلالُ بنُ سعدٍ رضِيَ اللّهُ عنْهُ : لا تَنْظُرْ إلى صِغَرِ الخَطِيئةِ ولكنْ انظُرْ إلى عَظَمَةِ مَنْ عَصَيْتَ . ومنها : السُرورُ بِها والتَبَجُّحُ بسبَبِها واعتِقَادُ التَّمَكُّنِ منها نِعْمةً حتى إنَّ المُذنِبَ المُجاهِرَ بالمَعاصِي لَيَفْتخِرُ بِها فيقولُ : ما رَأَيتَنِي كيف شَتَمتُهُ وكَيْفَ مَزَّقْتُ عِرْضَه وكَيْفَ خَدَعتُهُ في المُعَامَلَةِ .

ومنها : أن يَتَهاوَنَ بِستْرِ اللّهِ عَلَيهِ .